العرب
الإثنين 2021/07/26
السنة 44 العدد 12129

المسرح في السعودية.. استثمار في منجم بكر

الرياض تؤسس بنجاح لفن في طريقه إلى الاضمحلال

تشكيل متطوّر لفن عريق

عرفت السعودية على مدار عقود بتوجهها المحافظ، غير أنها في السنوات الأخيرة انتهجت مجموعة من التغييرات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ضمن رؤية "السعودية 2030" التي ستغيّر وجه البلد من منتج ومصدّر للنفط إلى مركز حاضن للفنون قاطبة وعلى رأسها أبوالفنون.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

"أمامنا الكثير من العمل حتى نصل إلى تأسيس صناعة مسرحية عظيمة تخلد ثقافتنا، وتوثّق قصصنا وتعبّر عن همومنا وفنوننا وطموحاتنا، والكثير أيضا، لتجاوز التحديات". هذا ما قاله حامد بن محمد فايز نائب وزير الثقافة السعودي أمام نخبة من المسرحيين والفنانين والإعلاميين في المملكة التي تداركت تقصيرها في حق الفنون الدرامية، وبسوية عالية وملفتة في السنوات الأخيرة.

عزم سلطات الإشراف في السعودية على هذا التوسع الهائل والمفاجئ في إقامة دور للعروض المسرحية والسينمائية وغيرها من الفنون البصرية يُواجه بأسئلة تتعلّق بجدوى هذه السياسة الثقافية المتحمسة في "الوقت الضائع" كما يرى بعض المراقبين.

قلب للموازين

ما جدوى هذا الاهتمام بالمسرح والسينما في الوقت الذي تُغلق فيه قاعات الفنّين الرابع والسابع ببلاد لها باع طويل في هذا المجال مثل مصر ولبنان وسوريا وتونس؟ أين كانت الحركة المسرحية في المملكة عهد ذاك الربيع المسرحي والسينمائي الذي شهدته بعض البلدان العربية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي؟ ولماذا كانت تختصر مشاركتها في المهرجانات العربية على عروض خجولة تكتفي بتثبيت الحضور دون أن تترك أي أثر أو صدى؟

الحقيقة التي قد يجهلها الكثيرون هي أن المسرح في السعودية عريق وضارب في القدم، وربما أقدم بكثير من بعض دول المنطقة، ذلك أنّ أول عمل مسرحي كان قد أقيم في المدينة المنورة سنة 1910 وحمل عنوان "فتاة الدستور"، في إنتاج لجمعية الاتحاد والترقي التي كانت تنتقد دكتاتورية السلطنة العثمانية آنذاك.

وكان على المسرحيين السعوديين أن ينتظروا ويكابدوا عقودا طويلة ضمن محاولات متعثرة منذ ستينات القرن الماضي على يد أحمد السباعي ورفاقه، حتى يتهيأوا لخطة أعلنتها وزارة الثقافة العام الحالي وتهدف إلى إعادة الاعتبار للمسرح والارتقاء به إلى المكانة التي يستحقها بعد سنوات التهميش والتناسي غير المبرّر، كما يقول الغيورون على هذا الفن في المملكة.

الجواب الصحيح هو في عهدة الإرادة السياسية التي بإمكانها أن تقلب الموازين وتنصف التاريخ، ذلك أن لا وجود لبلاد دون ذاكرة روائية ومسرحية توثق لشعب فعل وتفاعل مع التاريخ في أقصى انعطافاته الدرامية مثل السعودية.

لا إنجاز ثقافيا دون قرار سياسي، هذا ما أدركته القيادة السعودية مستفيدة من تجارب غيرها شرقا وغربا. ولذلك كان لا بد من القرار وتجاوز الأيادي المرتعشة في سبيل الوصول إلى الاستثمار في الثقافة والفنون.

أدركت المملكة – وإن تأخرت – أن ثروتها ليست البترول وحده، وأن مكانتها ليست في تلك الصورة التقليدية المسوّقة والمستهلكة، والتي استفاد منها الكثير من خصومها، بل هي دولة مترامية الأطراف، وضاربة في التاريخ والجغرافيا.. فلماذا تسجن نفسها في الإطار الذي يريد الآخرون أن يروها فيه؟

هفوات تاريخية لا بد من إصلاحها الآن، وهذا ما سعى له ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان ضمن رؤيته لـ"السعودية 2030". عزم الرجل دون تردد على القول بأن بلاده ليست مجرد شعب ذي اقتصاد ريعي، يسوح في الأرض وبلاد الآخرين باحثا عن وسائل ترفيه لا توجد في بلاده.

نعم تأخرنا.. ولكن بإمكاننا التدارك.. أن تصل متأخرا خير من أن لا تصل أبدا.. هذا ما تريد قوله السياسة الثقافية السعودية الآن.

"يعطيك الحج والناس راجعة" مثل شامي يقال لمن جاء متأخرا، ويراد من خلاله السخرية ممّن يدرك الأمور بعد فوات الأوان، لكن السعوديين وبقدراتهم الذاتية وفراستهم المستقبلية أدركوا أنه يمكن التدارك في جميع الأزمنة والأوقات.

ماذا يعني أن تستهدف مبادرة المسرح المدرسي تدريب 25 ألف معلم ومعلمة خلال ثلاث سنوات ليكونوا مشرفي نشاط مسرحي في مدارس التعليم العام إلى جانب توفير التخصّصات المسرحية ضمن التعليم العالي؟ ماذا يعني ارتفاع دور السينما بعموم البلاد إلى 39، مع استعداد لافتتاح 22 دارا جديدة حتى نهاية 2021؟

> **الحقيقة التي يجهلها الكثيرون هي أن المسرح في السعودية ضارب في القدم، وربما أقدم بكثير من بعض دول المنطقة**

هذا يعني شيئا واحدا اسمه الإرادة السياسية، ذلك أنه لا بد من التذكير بأن تطوّر المسرح التونسي يعود إلى خطاب الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة في 7 نوفمبر 1962 الذي قال فيه للتونسيين "إن المسرح هو خلاصنا"، كما أن صرامة الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد في جعل الدراما السورية تحتل المحطات العربية كبروباغندا سياسية لها دور في تلك السطوة الدرامية، رغم الفارق الشاسع بين الرجلين.

السعودية كانت أكثر واقعية وبراغماتية ممّا يراه الأسد وبورقيبة. إنها تنظر في الحسابات، ولا شيء غير الحسابات، ودون تفويت القيمة المعنوية والثقافية للشأن المسرحي – وهذا لا يسقط من قيمة الثقافة – إذ استهدف رؤية "السعودية 2030" رفع مساهمة قطاع الترفيه من إجمالي الناتج المحلي من 3 إلى 6 في المئة، حيث صرّح الأمير محمد بن سلمان بأن بلاده "تستهدف توطين 50 في المئة من قطاع الترفيه"، إذ ينفق المواطنون 22 مليار دولار على الترفيه في الخارج سنويا.

احتفاء بالفنون

ماذا يعني أن ينفق السعوديون كل هذا المبلغ الهائل في سبيل "الحاجة الثقافية" حتى وإن سمّيناها ترفيها؟ أليس الأجدر بهم أن يصرفوا نقودهم في بلادهم؟ ثم أن بإمكانهم تحقيق "الاكتفاء الذاتي" في هذا المجال.

قد ينتقد بعضهم استخدام مصطلح "الترفيه الثقافي" كما يرد على ألسنة بعض المسؤولين الثقافيين في السعودية، وقد يتعرّض آخرون لكلمة "السياحة الثقافية" بالسخرية، وقد يظن آخرون أن السعودية مجرد بلاد للمال والأعمال، لكن الأمر ليس كذلك وفق القراءات والإحصائيات المفنّدة لكل التقولات.

السعودية تعرف أين تمضي بفضل قيادة شديدة التحكيم والتخطيط والانتباه، وإن تأخرت في نظر بعض المراقبين، لكن "أن تصل متأخرا، خير بكثير من أن لا تصل أبدا".

البنى التحتية للمسرح والسينما تشبه مثيلاتها في الصلاة والعبادة، أي أن كثرة المساجد تشجّع على الصلاة – وربما التطرف والمغالاة – كما يقول أحد علماء الاجتماع في العصر الحديث. والسعودي الذي يخرج من بيته ويصطدم بدار مسرح أو سينما أو قاعة للعرض التشكيلي في طريقه، فإنه سيزورها غصبا عنه.. وهناك تحدث الواقعة أي متعة الاكتشاف.

ما حقّقته السعودية في غضون سنوات قليلة ضمن مشروع 2030 يتجاوز ما أخفقت فيه دول عربية أخرى من حيث عدد الصالات المخصّصة للعرض.

تراجع عدد قاعات المسرح والسينما في كل من مصر وتونس ولبنان بشكل مخيف في السنوات الأخيرة، لكنه ازداد في السعودية، وعلى نحو متسارع.

ومنذ افتتاح أول دار عرض سينمائي بالسعودية مطلع أبريل 2018، بعد حظر دام أكثر من 35 عاما تسارعت وتيرة هذا الانفتاح، حيث أعلنت سلطات المملكة مؤخرا ارتفاع دور السينما بعموم البلاد إلى 39 مع استعداد لافتتاح 22 دارا جديدة حتى نهاية 2021.

بعضهم يعتقد أن السعودية تلعب في الوقت الضائع وتبيع الماء في حارة السقائين، تهدر أموالا حيث لا ينبغي، لكن الحقيقة أنها، ويحسب لها، أنها أول بلد يعيد النظر والانتباه للمسرح دون الخشية من فوات الأوان.. وقريبا سيكتشف العالم منجما دراميا في المسرح والسينما اسمه السعودية.

نعم، كيف لبلاد أنجبت هذا الكم الهائل من الشعراء وسط تلك البيئة الأخاذة، أن لا تنجب دراما هائلة تستفيد منها السينما والمسرح، وما يُنتج عنها من سياحة وترفيه؟ الفصل بين الثقافة والسياحة والمال والترفيه، سؤال قد لا يبدو محيرا، والسعودية تملك الجواب ضمن خطة 2030.

السعودية من تحريم التماثيل إلى قبلة لأبرز النحاتين العالميين

يكشف ملتقى طويق الدولي للنحت في نسخته الثالثة المزمع إقامتها في الخريف القادم بالعاصمة السعودية الرياض عن أن الحركة النحتية في السعودية في طريقها إلى الخروج إلى "الهواء الطلق" بثقة وسرعة انفتاح على موضوعات حية جديدة، بعد أن كانت مقيّدة في دائرة ضيقة من المفردات الزخرفية التي لا يحوم حولها الشك في مجتمع لا يزال فيه من يعتقد أن فن النحت مرتبط أساسا بالأوثان.

الرياض – تستمر السعودية في كسر الصورة التقليدية التي عرفت بها تاريخيا، وهذه المرة من خلال إقامة ورشة كبيرة لإنتاج المنحوتات التي ستُعرض بعد اكتمالها في الأماكن العامة، حيث تتحوّل العاصمة الرياض إلى معرض فني بلا جدران ويكون الجمهور العادي على اتصال مباشر سواء أثناء أيام الورشة وبعدها مع عالم لم يعهدوه من قبل بل كان محكوما بقيود التحريم.

وأعلن المشرفون على مشروع "الرياض آرت" عن اختيار عشرين فنانا من دول عربية وأجنبية للمشاركة في النسخة الثالثة من ملتقى طويق الدولي للنحت في الخريف القادم. وكان ذلك المشروع قد توقّف بسبب الوضع الطارئ الذي فرضه انتشار جائحة كورونا.

والجديد في هذا الملتقى أن الفنانين يعملون في الهواء الطلق بما يسمح بإقامة حوار مباشر مع الجمهور الذي ستُتاح له فرصة مشاهدة العملية الإبداعية في مراحل تشكّلها والتعرّف عليها عن قرب، بالإضافة إلى تقديم برامج متنوّعة تتضمّن مجموعة من الحوارات العامة والفعاليات.

فاروق يوسف

ليس مفاجئا أن يكون هناك ملتقى للنحت المعاصر في السعودية

ومن شأن الحوار المباشر مع الفنانين أن يُتيح مناقشة الأفكار المسبقة لدى شريحة من السعوديين تقيس الواقع بالنظر إلى الماضي، وتربط بين النحت والتماثيل القديمة دون مراعاة تغيّر الوقت وتطوّر الفكر وطريقة النظر إلى الأعمال الفنية بمعزل عن الأفكار الجاهزة. لكن الأهم هو الانفتاح على الشباب والطلاب في المدارس وإعطائهم الفرصة للتواصل مع المبدعين ومعرفة هذا الفن عن قرب بدلا من اعتماد فتاوى تحريم صدرت عن جهات أو أشخاص لا يعرفون النحت ومقاصده كفن.

روح جديدة

يقول المنظمون إنه سيتم عرض كل عمل من الأعمال عند اكتماله لمدة خمسة أيام بعد انتهاء الملتقى خلال الفترة من الثاني وحتى السادس من ديسمبر 2021، ثم سيتم نقل المنحوتات إلى عدد من المواقع العامة حول مدينة الرياض، وذلك تجسيدا لرسالة مشروع "الرياض آرت" التي تهدف إلى تحويل المدينة إلى معرض فني بلا جدران.

ويُقام على هامش الملتقى برنامج تعليميّ يستضيف الزيارات المدرسية والجامعية لمتابعة مراحل صنع المنحوتات، وذلك لخلق تجربة تعليمية تثري معارف للطلاب لتعلّم أهم المهارات باستخدام المواد والأدوات والتقنيات، وتشجيع المعلّمين على استيعاب البعد المعرفي والفني الثري في تجربة النحت.

ويبدو الانفتاح على فن النحت جزءا من اتساع دائرة التنوير الثقافي التي شملت السينما والمسرح والغناء ضمن التحوّلات الكبرى التي تعيشها السعودية. وأساس هذه التحوّلات هو الانفتاح على القيم والمنتجات الفكرية والفنية الحديثة، والتخلص من التشدّد الذي طبع حياة السعوديين لعقود وأعاقهم عن الاستفادة من تجارب الآخرين.

ويقول الناقد التشكيلي فاروق يوسف إنه ليس مفاجئا أن يكون هناك ملتقى للنحت المعاصر في السعودية. ليس فقط لأنها الدورة الثالثة للملتقى، بل وأيضا لأن ساحل مدينة جدة يعجّ بالمنحوتات منذ أكثر من ثلاثين سنة، وهي أعمال فنية نفّذها فنانون كبار في مقدّمهم وجيه نحلة وعارف الرئيس وآدم حنين. صحيح أن تلك المنحوتات تقيّدت بالأسلوب التجريدي من أجل تحاشي الاصطدام بشبهة تقليد الجسد البشري غير أن القيم الفنية التي انطوت عليها كانت مناسبة لخلق فضاء جمالي يوسّع المجال للتفكير في البعد المديني للحياة اليومية.

وأضاف يوسف في تصريح لـ"العرب" أن "من يعرف تاريخ وواقع الفن التشكيلي في المملكة، لا بد أن يكون قد تعرّف على النحات السعودي كمال المعلم الذي درس في إيطاليا وصارت منحوتاته جزءا من الطابع الثقافي المعاصر الذي تضفيه المملكة على مشاركاتها في اللقاءات العالمية، ناهيك عن عرض تلك المنحوتات في الأماكن العامة".

وأشار إلى أن أعمال المعلم النحتية وصلت إلى مناطق بعيدة ما كان في إمكان النحات أن يصل إليها بنفسه لولا دعم المؤسسة الثقافية ورغبتها في أن يكون النحت واجهة للتعريف الثقافي بالمملكة.

وإذا كان المعلم قد استند إلى الطابع الرمزي من أجل إقناع عدد محدود من المتابعين بأهمية أن يكون هناك نحت في الحياة اليومية، فإن ملتقى "الرياض آرت" سينفتح على الأساليب الفنية كلها من غير التقيّد بأساليب وموضوعات بعينها.

ويقول المنظمون إن الملتقى سيعقد تحت شعار "شاعرية المكان" لاستكشاف الروابط بين المادة والفضاء والضوء والظل، وليكون منصة محفزة للفنانين لإنشاء منحوتات تتواءم مع بيئتها ومحيطها في حي جاكس بالدرعية، كما يعدّ فرصة لاحتكاك الفنانين المحليين الصاعدين بنظرائهم من الفنانين من مختلف أنحاء العالم.

وسيكون العمل المباشر وسط البيئة مناسبة بالنسبة إلى الفنانين القادمين من مختلف أنحاء العالم للتعرّف على إيحاء مكان مختلف، مكان تنطوي سعته على الكثير من الأفكار الماورائية.

ويتضمن 12 حلقة نقاش تجمع عددا من الفنانين والممارسين لمشاركة أفضل تجاربهم واستكشاف الروابط بين مدارس وتوجهات النحت المختلفة.

وكما أن البعد الجمالي حاضر بقوة في المشروع، حيث ستحظى العاصمة السعودية بالانفتاح على أفكار عالمية مجسّدة هي انعكاس لما تنطوي عليه من تأثير إلهامي، فإن البعد السياسي سيكون هو الآخر قائما من جهة تقديم صورة لعاصمة معاصرة لا تفصل بينها وبين المدن الكبرى المعاصرة أفكار جاهزة ليس لها أساس في العقيدة.

وكانت هناك فكرة قديمة تعتمد على التزيين عن طريق الفن، واليوم تحل محلها فكرة جديدة تتبنى التربية عن طريق الفن. وبناء على هذا المشروع فإن التربية البصرية تكون عامة ومباشرة تتخطّى مسألة التذوّق الفني إلى إعادة إنتاج شكل المدينة.

> **السعودية مقبلة على ظهور جيل جديد من النحاتين هو ابن مرحلة سياسية يكون فيها البلد قد تحرّر من قيود الماضي**

جيل جديد من النحاتين

من ناحية أخرى فإن إقامة مثل هذه الملتقيات المتخصّصة ستكون عنصرا مشجعا للشباب السعودي لدراسة النحت وفهم تحوّلاته التاريخية وتجريب أساليبه المعاصرة.

وذلك يعني كما يقول يوسف أن كمال المعلم لن يبقى وحيدا، بل أن السعودية مقبلة على ظهور جيل جديد من النحاتين هو ابن مرحلة سياسية تكون السعودية فيها قد تحرّرت من قيود الماضي التي كبّلت قدرتها المتاحة على الاتصال بالعالم زمنا طويلا. ذلك جيل سيقف في موازاة جيل الفنانين المعاصرين الذين انغمسوا في تجارب فنون ما بعد الحداثة كالتركيب والتجهيز والأداء الجسدي وفن الأرض وفن الحدث وإنتاج الأفلام بتقنية الفيديو.

ومثلما وهبت السعودية العالم العربي كتّابا ورسامين كبارا من أمثال عبدالحليم الرضوي وصفية بنت زفر وطه الصبان وعبدالله الشيخ وعبدالله حماس، فإنها مؤهلة لأن يكون لديها نحاتون كبار أيضا.

وهو ما يمكن توقّعه إذا ما توسّعت دائرة الملتقيات الفنية التي تتمحور حول النحت وتكون بمثابة ورش عملية يساهم فيها نحاتون عالميون يحملون خبرات مختلفة هي جزء من الأثر الذي تتركه الثقافات من خلال تباين تجارب الأمم التي خلقتها.

معرض فني خارج الجدران